التراث الشفهي بمدينة "تطوان"
تراث إنساني حي ذو طابع أندلسي

نورالدين أشبون
متخصص في قضايا التراث
جامعة عبد المالك السعدي "تطوان" المغرب
Noureddineachboun@gmail.com
https://orcid.org/0000-0003-2417-8623

https://doi.org/10.5281/zenodo.7768829 HjMS-VOL2023.CID:037016

الملخص:

إن الموروث الثقافي الشفهي لا زال يحتفظ بعراقته وأصالته في المجتمع التطواني، ويتعزز هذا من خلال حضوره في السلوك اليومي والمناسباتي للفرد، حيث يتمسك التطوانيون بتراثهم الشفهي، وأهم ما يميز هذا الموروث الثقافي الشفهي بمجموعة من الثقافات المختلفة أبرزها الأندلسية والأمازيغية والأسبانية المعاصرة، وقد تفردت إبداعات التراث الشفهي التطواني بصور فنية وجمالية بلغت حد الروعة، كان للطابع الأندلسي دوراً هاماً في ذلك منذ القرن الخامس عشر الميلادي، سواء في الفنون الشفهية أو في اللهجة المحلية التطوانية التي تترصع بمصطلحات أندلسية لا زالت حية ليومنا الحالي.

الكلمات المفتاحية: التراث الشفهي، "تطوان"، اللهجة المحلية، الفنون الغنائية، الموروث الثقافي.

Abstract:

The richness of the oral cultural heritage still retains its authenticity in the Tetouan community, and it is strengthened through its presence in the daily and occasional behavior of the individual. Tetouan residents cling to their oral heritage, and what distinguishes this richness is the influence that the Tetouan oral cultural heritage is exposed to by a variety of different cultures, including Andalusian, Amazigh, and contemporary Spanish culture. The creative expressions of Tetouan's oral heritage are unique in their artistic and aesthetic forms, reaching the height of splendor. The Andalusian character played an important role in this since the 15th century AD, whether in oral arts or in the local Tetouan dialect, which is adorned with Andalusian terms that are still alive to this day.

Keywords: Oral heritage; Tetouan; Local dialect; singing; Cultural heritage.

المقدمة:

تختلف طبقات المجتمعات البشرية وأحوالها، ولعل أقرب الوسائل للمعرفة والغوص فيها هي دراسة التراث الشفهي، الذي يعتبر مادة خصبة للباحثين لمعرفة الحقائق المتعلقة بالعنصر البشري" (داود، 1999، ص5)، "إن الإبداعات الشفهية للمجتمع التطواني لا تكشف لنا عن المهارات الجمالية والفنية التي اكتسبها السكان في "تطوان" عبر الزمن في تفاعلهم مع المجال ومحيطهم البيئي فقط" (حسن والتزرني،2019، ص371)، بل تعبر بجلاء عن جوانب عديدة تخص الروابط الثقافية والاجتماعية لهذه المجموعة البشرية.

كما تكشف عن نمط عيش الأفراد والجماعات وما يتحكم فيها من ظروف ثقافية وسوسيو-اقتصادية، وفي إطار البحث الذي قمنا به وجدنا مجموعة كبيرة جداً من الكتابات التي تخصصت في أحد العناصر المكونة للتراث الشفهي "بتطوان"، والتي يصعب جمعها وتحديدها، ولكن سنتطرق في مقالتنا هذه لأهمها وأكثرها انتشاراً، التي من الممكن أن تلعب دور المؤثر في التعريف بالهوية المحلية وتخزين الذاكرة الثقافية بالخصوص.

مشكلة الدراسة:

الإشكالية التي يمكن طرحها بهذا الصدد هي: هل يمكن القول أن الموروث الشفهي لا زال يحتفظ بعراقته وأصالته في المجتمع التطواني، وبالتالي ما مدى حضوره في السلوك اليومي والمناسبات في هذا المجتمع؟ كما يمكن طرح إشكالية أخرى تتعلق بمدى تأثر التراث الشفهي التطواني بالثقافات الأخرى خاصةً الثقافة الأندلسية؟

فرضيات الدراسة:

هنا نستحضر مجموعة من الفرضيات التي قد تشكل توضيحاً منطقياً لكل الإشكاليات المطروحة، نستعرضها كالآتي:

1- حيث إن العولمة الثقافية أدت دوراً هاماً في محو الهوية المحلية، وأثرت في المجتمعات بصفة عامة وعملت على محو الذكرة الثقافية لمجموعة من الشعوب بما في ذلك موروثها الشفهي.

2- وحيث إن المجتمع التطواني مجتمع محافظ على أصالته وثقافته المحلية ومتشبث بتراثه الشفهي الذي هو عبارة عن مزج ثقافات عدة أبرزها الأندلسية والأمازيغية مما أعطى تميزاً وتفرداً لهذا الموروث على المستوى الوطني والعربي.

3- وحيث أن القرب الجغرافي لمدينة "تطوان" من أسبانيا ساهم في الحفاظ نوعاً ما على تراثها الشفهي، خاصةً في ظل الاحتكاك البشري والإنساني المستمر، خصوصاً منه ذلك المتعلق بالثقافة الأسبانية الأندلسية، كما أن وجود العنصر البشري العثماني وحضوره في المجتمع التطواني كان له الدور الأهم في التأثر بالثقافة العثمانية.

وللإجابة عن هذه الإشكالية ومن خلال كل ما سبق سنقوم بعرض مجموعة من نماذج للموروث الثقافي الشفهي التطواني، سواء المتعلق باللهجة المحلية أو بعض الفنون الغنائية أو النثرية.

أهداف الدراسة:

يتميز التراث الثقافي الشفهي بمدينة "تطوان"، بغزارته وتنوعه، لكن الدارس لهذا الموضوع سيكتشف ندرة الأعمال الأكاديمية، والدراسات التي اهتمت به بشكل شامل ومستفيض، فحين نستعرض الكتابات التي اهتمت به سنلاحظ أنها –في أغلب الأحيان– عبارة عن شذرات مشتتة، مما يثير التساؤل حول التهميش الذي طاله، وعدم تسليط الضوء عليه إلا يسيراً، على الرغم من كونه يشكل ركيزة أساسية للثقافة المحلية، على ما يبدو يمكن إرجاع هذا التهميش والإهمال لأسباب متنوعة، نذكر منها على الخصوص:

1- تركيز الباحثين أكثر على دراسة التراث الثقافي في بعده المادي، باعتباره الصنف الأكثر بروزاً خصوصاً مع وجود الوثائق والمصادر التي يمكن الاعتماد عليها أثناء الدراسة.

2- محدودية اطلاع أكثرية الباحثين على هذا الصنف من التراث، وذلك لأن اهتمام المغرب به جاء متأخراً شأنه شأن العديد من الدول العربية.

ومن أجل إعطاء دراستنا قيمتها العلمية وحتى يستقيم تحليلنا ويتجاوز كل ما ذكرناه تم تحديد أهداف البحث في النقط التالية:

أ. القيام بتشخيص كاف للتراث الثقافي الشفهي بجماعة "تطوان".

ب. تحديد أهمية التراث الثقافي الشفهي في ثقافة جماعة "تطوان".

ج. لفت انتباه وإذكاء الوعي لدى السياسيين وصناع القرار، بالمجال المدروس، بأهمية التراث الثقافي الشفهي مع ضرورة الحفاظ عليه وتثمينه.

د. تجاوز مشكلة قلة الدراسات حول التراث الثقافي الشفهي بمجال الدراسة، وذلك بطرح دراسة مستفيضة يمكن أن تشكل منطلقا للدراسات المستقبلية حول هذا الموضوع.

أهمية الدراسة:

عادة ما يقع الباحثين في الخلط بين أهمية البحث وأهدافه، فالأهداف هى النتائج التي سوف يحققها الباحث عند انتهائه من البحث، والتي يمكن أن تشتق من فرضيات البحث أو تساؤلاته، أما أهمية البحث فهي ما يمكن أن يترتب على نتائج البحث من فوائد علمية وتطبيقية" (الزروالي، 2019، ص13)، وعلى هذا الأساس، تكمن جدة دراستنا في كونها تقارب أهمية التراث الثقافي الشفهي باعتباره مورداً مجالياً لا بد من استثماره في القطاع السياحي، خاصةً إذا علمنا أن بعض التجارب الناجحة في هذا المجال سواء بدول الجنوب أو الشمال يعود فيها الفضل لاعتنائها ودراستها لمختلف العناصر التراثية الثقافية اللا مادية عبر مجموعة من التخصصات العلمية على رأسها الجغرافية.

ومن جهة أخرى تبرز أهمية هذا العمل لكونه وظف مناهج تحليل علمية عدة (الوصفي، التاريخي) تقاطعت لإبراز أهمية هذا التراث الثقافي الشفهي بجماعة "تطوان"، ودوره في النهوض بالتنمية السياحية دون أن ننسى أن الخريطة كانت حاضرة بقوة في تناول مجموعة من العناصر التراثية المميزة للمدينة، وتقديمها في قالب تحليلي وصفي ساعدنا في الإحاطة الدقيقة لمختلف المؤهلات التراثية ذات القيمة السوسيوثقافية في الحياة الاقتصادية للمدينة.

حدود الدراسة:

نظراً لاعتمادنا المنهج التاريخي من أجل تنزيل أهداف الدراسة كان من الواجب تحديد الإطار الزمني لها، ونظراً لقلة الدراسات التي تطرقت للموضوع في أزمنة مختلفة فقد تم الاقتصار على الفترة المعاصرة فحسب باعتبارها الفترة الأكثر دينامية بخصوص تطور التراث الشفهي، وباعتبار أن الدراسة تنتمي لحيز الجغرافية الثقافية فكان من الواجب تحديد مجال للدراسة، هذا المجال الجغرافي هو مدينة "تطوان".

مصطلحات الدراسة وتعريفاتها:

1- التراث الثقافي الشفهي: هو مجموعة الممارسات والعادات من أساطير وأقاويل ومعارف ومظاهر تعبيرية ومذاهب وآراء ويندرج ضمن التراث الشفوي لمجتمع ما:

أ. الأمثال الشعبية التي خلفها الأجداد وتوارثهما الآباء وورثوها للأبناء.

ب. التعبير بواسطة الغناء الشعبي لنصوص شعرية قديمة أنتجتها المجتمعات السابقة.

2- اللهجة المحلية.

المنهج المتبع:

تحقيقاً لما تفتضيه الإشكالية اعتمدنا المنهج التاريخي الوصفي في تناول عدة محاور تخص التراث الشفهي التطواني، الذي يستند على الوثيقة بمختلف أنواعها، كما حاولنا الاستعانة بمقاربة ثقافية تهدف لتثمين التراث الثقافي اللا مادي لمدينة "تطوان" في أبعاد مختلفة، كاللهجة المحلية، والفنون الغنائية، والفن الشعبي الحكواتي عبر مرحلة زمنية تنطلق من الهجرات الأندلسية الأولى لحدود الفترة الراهنة.

1- **اللهجة المحلية تعكس تنوع الأصول الجغرافية لساكنة المدينة:** اللغة التي يتكلم بها سكان "تطوان" هي نفس اللغة التي تتكلم بها المجموعات البشرية في دول شمال أفريقيا (داود، 2019، ص55)، وهي اللغة العربية الدارجة، إلا أن لسكان "تطوان" لهجة خاصة كما لكل مدينة أو جماعة بشرية لهجتها الخاصة، فتجد في "تطوان" تعابير

ومصطلحات لا تجدها في المدن المجاورة، حتى أن لهجة الشرائح المختلفة في "تطوان" تختلف باختلاف الوسط، فمثلاً لهجة المثقفين تختلف عن لهجة العامة من السكان، وذكر المؤرخ "أبو العباس أحمد الرهوني": أن سكان "تطوان" هم خليط من عرب نازحين من الأندلس وغيرها ومن أمازيغيين أصلي ومن نازحين من نصارى ويهود، وأن العرب الأندلسيين قد أتوا بعربية مخلوطة بعدة ألفاظ لاتينية، فأحدثوا لهجة مؤلفة من عربية وبربرية ولاتينية، كما خلطوها بشيء من الألفاظ التركية التي نقلها إليهم مهاجرو الجزائر (داود، 2019، ص55).

جدول1: نموذج لكلمات عثمانية في اللهجة التطوانية

التعبير	المعنى
البوف	الرئة
ماعينو	جدتي
باسيدو	جدي
حبابي	عندما ننادي السيدة العجوز حبابي فلانة
البوجة	حفل العرس
بقلاوة	نوع من الحلوى
البقرج	إناء تطهى فيه القهوة

المصدر: عمل الباحث

كما كان للتأثير الأسباني نصيب كبير في التأثير على اللهجة التطوانية، خصوصاً وأن المدينة كانت مستعمرة أسبانية لمدة تقارب النصف قرن، بالإضافة للعامل الجغرافي، خصوصاً التواجد الأسباني بمدينة سبتة، حتى أن أغلب سكان مدينة "تطوان" يتحدثون الأسبانية بكل طلاقة.

فهنا لا يمكن حصر التعابير الأسبانية في اللهجة التطوانية، ولكن يمكن استعراض بعضها لتزكية الطرح فقط، ويؤدي التصغير في اللهجة التطوانية دوراً كبيراً، إذ جعل سكان "تطوان" لأغلب الأسماء مصغرات تدل إما على التفخيم أو الملاحة أو التقليل أو التصغير، فمن قولهم "طعيم" تصغير الطعام، تفخيم وتعظيم إذ يطلقون هذا اللفظ حين يقصدون وليمة الفرح ونحوها "الحرايمي" مصغر حرامي وهو الذكي، وحرايمي: شديد الذكاء، "حميدو" تصغير لأحمد "نويويرة" تصغير النوارة، ويقصد بها الملاحة والظرف، "دريويش" تصغير درويش وهو الفقير "السويف"، وتصغير سيف ويقصد به نوع من الطيور يشبه الصقر، وفي هذاين الإسمين مبالغة لبيان شدة الفقر في الأول وشدة الفتك في الثاني، و"الشتيوا" تصغير للشتاء ويقصد بها المطر، ويهدفون إلى التقليل من الأثر والكم، وفي قول سكان "تطوان" "جحيش"و"زنيبر" تصغير للجحش والزنبور كتصغير وتحقير لهذه المسميات" (عبد المنعم، 1968، ص75).

جدول2: نموذج لكلمات إسبانية في اللهجة التطوانية

التعبير	المعنى
Vacuna	اللقاح
Batido	عصير الفواكة
Bufanda	وشاح العنق
Bolso	حقيبة
Redoma	قنينة

Tabla	مائدة
Tacón	الكعب
Troley	الترام
Carretera	طريق
Camarero	نادل
Cuadro	إطار
Gamba	نوع من فواكة البحر
Droga	مخدرات
Ensalada	سلطة
Guantes	قفازات

المصدر: عمل الباحث

2- **العيطة الجبلية نموذج لفن الغناء المحلي التطواني:** تعني العيطة في مفهومها الأصلي القديم النداء، أي نداء القبيلة والاستنجاد بالسلف لتحريك واستنهاض همم الرجال واستحضار ملكة الشعر والغناء، حيث كان يقال "عمل شي عيطة يا فلان"، من هنا جاءت كلمة العيطة، أما اصطلاحاً فهي مجموعة من المقاطع الغنائية والفواصل الموسيقية الإيقاعية الممتزجة في منظومة تختلف عناصرها باختلاف أنواع وأنماط العيطة نفسها.

وتتميز منطقة بلاد جبالة بتراثها الثقافي المتميز عن باقي مناطق الأخرى في المغرب، وتعتبر العيطة الجبلية المنبثقة من المناطق الجبلية من أهم ما يزخر به التراث الفني بمنطقة جبالة، وباعتبار أن مدينة "تطوان" هي المركز والقلب النابض لهذه المنطقة فهي تعتبر من أهم حاضني العيطة الجبلية، فلا يمكن أن يخلو العرس التطواني من الأغاني والمقطوعات الجبلية.

والعيطة عبارة عن مقطوعات قصيرة تمثل التراث الشعبي الجبلي ذات مواضع مختلفة تتمثل في الهجاء والمدح والغزل والتشجيع على الجهاد في بعض منها، وهي تجمع بين الغناء والموسيقى والرقص، حيث تبتدأ العيطة بلحن حر بطيء الحركة تعزفه الكمان أو "الكمبري" أو العود، بعدها يبدأ الجوق في عزف اللحن الأساسي، وهو اللحن نفسه يظل يتكرر سواء مع مقاطع الأغنية أو كفاصل خلالها، ثم يتبعه المغني بإنشاد مطلع الأغنية، يردده بعده العازفون لأنهم أنفسهم يقومون بدور الغناء الجماعي، وعندما تقترب نهاية الأغنية يقع تغيير بسيط في اللحن، حيث يرتفع القرار إلى مسافة أعلى، ويميل الإيقاع إلى السرعة تنبيها باقتراب نهاية الأغنية، وجميع أغاني العيطة تؤدى بنفس الأسلوب مع تغيير بسيط من جوق لآخر (مصطفى، 2000، ص11)، وهذا مقطع صغير لبعض الكلمات المستعملة في نموذج لأحد أشهر المقطوعات الغنائية في العيطة الجبلية:

أو يا لاه معايا ويا لاه معايا أو يا لاه معايا
أو مـــا أنـــسريـــك الـــغرســـة أو

وفي أغنية أخرى يقول:

لا لا بـــــلادي "تطوان" مـــــــــا
نـــســـــرى كـــل مـــكـــان أو نرجـــــع للـــى

ويقول كذلك:

يـــــــا لاه مـعـــاي ويا لاه لأنـــــجرة

صورة1: الآلات الموسيقية المستعملة في العيطة الجبلية

المصدر: https://www.youtube.com/watch?v=laiQEKVnmLU

تبين الصورة بعض الآلات الموسيقية المستعملة في العيطة الجبلية، التي اعتمدتها الفرق الموسيقية في مختلف فترات ازدهار هذا الفن الموسيقي، التي برع الحرفيون المحليون في صناعتها.

والملاحظ أن الإيقاع الذي يرافق العيطة الجبلية ويؤطرها ويضبطها زمنياً وحركياً هو في الكثير من الأحيان يعزف بمصاحبة الآلات الموسيقية فقط دون مصاحبة الأغنية، وذلك حتى يتمكن "الشطاح" وهو الراقص من إبراز قدراته ويمتع الجمهور برقصاته، ويكون شاباً جبلياً يتنكر بلباس المرأة المحلية، ويضع فوق رأسه صينية مملوءة بكؤوس الشاي والشموع الموقدة ثم يبدأ بالدوران حول نفسه وبالتمايل إلى الأمام والخلف، متزناً باتزان الإيقاع، ثم يهبط رويداً في حركات منتظمة إلى أن يقعد على ركبتيه، ثم يمتد طريحاً ويبدأ بالتدحرج على الأرض، إلى أن يقف من جديد، دون أن تسقط الصينية وما عليها ودون استعمال يديه.

وتؤدى هذه الرقصة في إطار بهلواني فرجوي، وتمارس هذه الطقوس الفنية غالباً في الأعراس والمواسم، حيث دائماً ينتظر الحضور فقرة العيطة الجبلية من أجل المشاهدة والاستمتاع بهذا الفن الشعبي، وغالباً ما يستهدف هذا الفن الطبقة العامة من السكان ولا يهتم به المثقفون والأعيان، بقدر ما يستمتعون بالغناء الأندلسي باعتباره فناً راقياً في حين أن العيطة الجبلية فناً شعبياً، ورغم كل ذلك فهو من الفنون الشعبية التي ما زالت تقاوم من أجل البقاء، وإن كانت منتشرة بشكل كبير في مختلف المناطق التابعة لبلاد جبالة إلا أنها في "تطوان" تقلصت ممارستها نوعاً ما.

ومن الملاحظ في السنوات الأخيرة انفتاح العيطة الجبلية على أصناف أخرى من الفنون الموسيقية إما بتطعيمها بألوان أخرى منها غربية أو شبابية حديثة أو إدماج مقطوعات منها في فنون غنائية أخرى على سبيل الاستلهام كالأغنية الشعبية التطوانية أو المغربية، مع الاحتفاظ بنغمات الآلات المستخدمة في العيطة الجبلية لتشكل مزيجاً موسيقياً رائعاً يواكب متطلبات المستمع في العصر الحالي، وهنا نفرق بين تيارين كمحبذين لمبادرة الاندماج مع فنون موسيقية أخرى باعتبار أنه نوع من أنواع الصون والحفاظ على هذا الموروث الثقافي اللا مادي من الاندثار، في حين أن تيار آخر رفض هذا التعايش الموسيقي باعتباره انسلاخ عن الهوية الحقيقية لهذا الفن الجبلي الأصيل، وأنه شكل من أشكال الاندثار والتحريف له.

صورة2: مجموعة للعيطة الجبلية

المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ 2018/8/02

تبرز الصورة مجموعة للعيطة الجبلية تتكون من ثلاث أفراد وهي من قبيلة بني يدر ضواحي مدينة تطوان، حيث تمارس هذه الفرق نشاطها في المناسبات الخاصة كالأعراس والعقيقة وغيرها

3- **الموسيقى الأندلسية ثابتة في التراث الشفهي التطواني:** اشتهرت مدينة "تطوان" بالموسيقى الأندلسية، والدليل على ذلك الأسماء التطوانية التي عرفت بتميزها في هذا التراث الشفهي، فورثها أبناءهم وأصبحت علامة فنية للمدينة، وقد تميزت بذلك الامتزاج بين المؤثرات العربية القديمة من المشرق بأخرى إيبيرية ثم مغاربية، مما أعطى فناً موسيقياً مجالياً.

وهكذا تبرز الموسيقى الأندلسية كأحد أهم الأنواع الموسيقية في "تطوان"، والتي يعتز بها سكان "تطوان" بل وتكون حاضرة في كل المناسبات والحفلات التطوانية، وقد نقلها الموريسكيون القادمون من غرناطة الفارين من جحيم الإبادة في القرن الخامس عشر الميلادي، وتشتمل الموسيقى الأندلسية على عدة نوبات، والنوبة هي مجموعة قطع شعرية من مختلف البحور والأوزان، وكل نوبة تحتوي على خمسة موازين هي: "البسيط"، "القائم والنصف"، "البطايحي"، "القدام" وأخيراً "الدرج".

وكل ميزان من هذه الموازين الخمسة تشتمل على عدة صنعات والصنعة تحتوي على أبيات شعرية تتردد في الغالب بين 3 و5 و7، فالصنعة إذا كانت فيها 3 أبيات تسمى صنعة ثلاثية، وإذا كانت تتكون من 5 أبيات تسمى خماسية... وهكذا، "فالنوبة تحتوي 5 مجموعات كل مجموعة منها تسمى ميزاناً، والميزان يحتوي على عدة صنائع تتفق في نغماتها وميزانها، وإن كانت تختلف في تلحينها" (محمد، 2016، ص501)، "قلنا إن الموسيقى الأندلسية تشتمل على عدة نوبات، حيث كانت هذه النوبات تؤدي في مختلف أوقات الليل والنهار".

جدول3: النوبات الموسيقية وأوقات

الرقم	النوبة	التوقيت الزمني
1	عرق العجم	عند الشروق

2	العشاق	الصباح
3	رمل الماية	الضحى
4	الرصد	الزوال
5	غريبة الحسين	بين الظهرين
6	الاستهلال الماية	العصر العشية
7	الحجاز الكبير	العشاءين
8	الحجاز المشرقي	بعد العشاء
9	الاصبهان	منتصف الليل
10	رصد الذيل	آخر الليل

المصدر: عمل الباحث

لا ينبغي أن نتغاضى عن الدور الهام الذي لعبته الزوايا والأضرحة في إثراء الآلة الأندلسية، فكانت الزاوية الحراقية بتطوان مرفقاً هيأ رواداً متميزين في هذا المجال، ولا يفوتنا أن نذكر بجوق "تطوان" الذي كان ولازال من أبرز المجموعات الأندلسية بالمغرب، حيث قدم عروضا متألقة في محافل دولية مند عقد الأربعينات، وكانت فترته الذهبية أثناء رئاسة الفنان المرحوم محمد العربي التمسماني الذي بفضله تم ظهور عدد من الصنائع التي كان يظن البعض أنها قد اندثرت، كما أعطى للآلة الأندلسية طابعاً خاصاً في أساليب التوزيع والأداء عبر إدخاله لعدد من الآلات التي لم تكن تستعمل من قبل، كان أهمها آلة البيانو، حيث أعطت للموسيقى الأندلسية بعداً جمالياً إضافياً، ولم تقف عبقرية "محمد العربي التمسماني" عند هذا الحد بل تجاوزته من خلال إضافته للأصوات النسائية إلى الجوق وإدخاله للرقص أيضاً في عروض فنية باهرة مع مجموعة "كلارا" الأسبانية.

وعرفت "تطوان" مجموعة من الفنانين المهرة في فن الغناء الأندلسي من بينهم الفنان "عبد الصادق اشقارة" الذي أسس جيلاً جديداً من الطرب الأندلسي، الذي استخرج منه ما يسمى بالأغنية التطوانية الشعبية، فمزج بين أصالة الطرب الأندلسي والكلام التطواني وإيقاعات جديدة مبتكرة، وأنت تتجول في المدينة العتيقة لتطوان لا يمكن ألا تستمع لنغمات "عبد الصادق اشقارة" في دروبها وأحيائها، حيث يعتبر من مجددي الأغنية الأندلسية بتطوان.

ولا زال المعهد الوطني للفنون الجميلة يكون موسيقيين في هذا النوع من الموسيقى، سواء كانوا رجلاً أو نساءً، كما أصبحت عادة مجموعة من المقاهي الراقية في "تطوان" أن تنظم أمسيات فنية للغناء الأندلسي وذلك بصفة يومية، حيث يرتدها مجموعة من محبي هذا الغناء الأصيل.

4- الحكم والأمثال التطوانية- موروث تطواني راسخ: الأمثال الشعبية هي كلمات فيها حكم وفوائد وثمرات تجارب، يستعملها الناس ويستفيدون منها ويستشهدون بها في مواقف خاصة ومواطن معينة، وهي غير خاصة بلغة دون أخرى، (محمد، 1999، ص22)، فهي موجودة بكل اللغات وفي كل المجموعات البشرية، ففي المغرب هناك أمثال باللغة العربية الفصحى والأمازيغية وحتى اللغات الأجنبية الأخرى كالأسبانية والفرنسية.

كما عرف البعض المثل بقوله أنه قول مأثور يمتاز بالإيجاز وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة، وهو مثال الجملة العربية في أسمى أشكالها، وللمثل مورد قيل فيه أولاً سواء كان حقيقياً أم فرضياً، ومضرب هو ما يقال فيه بعده، فالغرض منه تشبيه الحال الثانية بالأولى ليفيد الكلام قوة ووضوحاً (محمد ،2015، ص465).

أما الأمثال في الكلام العامي فإنها لا تتقيد عندنا بشيء من ذلك، فيدخل فيها كل كلام عامي يحفظه الناس ويقولونه في المناسبات الخاصة، وقد يكون كناية من الكنايات أو حكمة من الحكم موعظة، نصيحة فائدة علمية، طبية، تاريخية، أو وصفاً لشيء من الأشياء، كما يكون دعوة من الدعوات الصالحة أو غيرها(محمد، 1999، ص22).

ويصعب بالضبط الرجوع للشخص الذي أبدعها لأول مرة، ولا للمكان التي قيلت فيه أو الحادثة التي قيل بمناسبتها، وهذا ما يفسر وجود أمثلة متقاربة أو مختلف فيها فقط اللهجة التي تنطق بها، فهي تنتقل من مكان لآخر عن طريق تنقل العنصر البشري بين هذه الأماكن، وأحياناً يصعب التعرف بدقة على الظروف التي ظهر أو اشتهر فيها المثل الشعبي إلا في بعض الحالات النادرة.

والمثل الشعبي يعطي في جوهره نظرة صادقة عن مختلف خاصيات المجتمع الذي انبعثت منه، شأنه شأن ريشة الفنان التي تبرز تشابه الصورة مع صاحبها وتكشف في نفس الوقت عما يخامر نفس الفنان من شعور وما يروج في خاطره، وهكذا نرى المثل ينبعث من النشاط الثقافي الاجتماعي سواء كان استعماله على المستوى الوطني أو كان خاصاً بمجموعة جهوية أو بيئية محدودة، بل نجده يعتمد على معطيات دينية فلسفية خلقية تاريخية اجتماعية اقتصادية تميز الوسط التي تنبع منه(المسعودي، 1987، ص19).

وحيث تندرج الأمثال بدورها ضمن المأثورات الشعبية فهي عصارة تجارب الشعوب تترجم تقاليدها وعاداتها وعقليتها، وهي حاملة لمجموعة من القيم السائدة في المجتمع مثل الحب والصدق، العفة والإيثار(أمحراف، 2013، ص254)، فالأمثال التطوانية تحيلنا إلى الحياة اليومية لسكان "تطوان" وإلى عادتهم وتقاليدهم وحتى الجانب الروحي والفكري، وأيضاً للعناصر البشرية التي تتكون منها الساكنة بالمدينة من خلال اللهجات المستخدمة في هذه الأمثال العامية.

فلهجة "تطوان" تختلف من طبقة لأخرى بل والأكثر من هذا أن هذه الطبقات البشرية لا تعرف أشياء كثيرة عن بعضها البعض، كما أن الساكنة المحلية تختلف من حيث الأصول فتطوان غالبية ساكنتها من أصول أندلسية من الموريسكيين المهاجرين إلى المغرب في القرن 15، في حين البعض الآخر من أصول أمازيغية يعتبرون السكان الأصليين، بالإضافة للعنصر الجزائري وهو الأقل تمثيلاً في المجتمع التطواني، لذلك أحياناً نجد مثلاً عامياً واحداً منطوقاً بطريقة أو لهجة تختلف عن الأخرى.

وتطرق "محمد داود" في كتاباته للأمثال العامية التطوانية التي تداولها سكان "تطوان" في مختلف الحقب التاريخية، فمنها ما زال حياً متداولاً ومنها ما اختفى ولم يعد متداولاً.

جدول4: نموذج الأمثال العامية في "تطوان"

الأمثال العامية الحية	الأمثال العامية المهجورة
بعيد البلا والباس	بين للشاري ما يكره
بالشفا إن شاء الله	البيصار والما ولا الجداد بالدباز
تاكل شي أ مريط	تأمل قبل ما تعمل
التالتة تابتا	حمار كناوة ما كيهولوه القراقب
ثلاثة ما منهم آمان: النار والبحر والمخزن	الحيا ما كتعط روحا
الجار قبل الدار	خلط ومخلوط جوز وبلوط
حتى يخلق ونسيميواه عبد الرزاق	خيم عجولك يمشيوا ما يرجعولك
حساب لعكايز	رايق على البروج

ذكتب الله عليك هو هذا	ربي كريم ومعندوشي قليل
لي حصل كيأدي	الراجل حرما ولو كان عرما
راسو كبير وعقلو صغير	زال الري من يد أهل الري
زولالو من حلقو	طار طيرك وعباه غيرك
طاحت وجبرناها	الطوبا ما تعاند الحجرا

المصدر: عمل الباحث

من خلال البحث الميداني والوثائق المتعلقة بالأمثال العامية التطوانية اتضح أنه هناك لبس في هذه الأعراف القولية، حيث أن العديد من الناس خصوصاً فئة الشباب لا يعرفون مرادها وشرحها، حيث وجدنا تعارض بين ما يقصده المتحدث من استعمال هذه الأمثال وما فسرت به في كتب وأبحاث عن الأمثال العامية التطوانية.

كما أن لدراسة التراث الشفهي عدة خصوصيات ونتائج علمية نستهلها بالأهمية والفائدة الثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية من حيث أنها وثيقة شعبية لها قيمتها في تصوير البيئة الاجتماعية والنفسية للجماعات والمجموعات البشرية، وفيها إشارات إلى عدد من عوائد المجتمع وتقاليده وقيمه (رشيد، 2019، ص159).

كما تكشف لنا الأمثال العامية عن الطبقات الاجتماعية في المجموعة البشرية، وعن وضعية ومحيط ومستوى تطور مجموعة من المهن الحرفية التجارية والبحرية في المجتمع، وإن الأمثال العامية هي نتاج رصيد المجتمع الأخلاقي الاجتماعي والثقافي وعصارة الوجود الطبيعي والبشري، كما أنها تلعب دور الموجه للجماعة البشرية من حيث قيم الحياة والاستمرار.

5- الفن الحكواتي التطواني: موروث تطواني شبه مندثر: بدأ هذا التراث في أوربا والعالم العربي يحتل موقعه المتميز في الثقافة الإنسانية المعاصرة انطلاقاً من القرن التاسع عشر، ومغاربياً انطلاقاً من القرن العشرين، حيث لم يبدأ الاهتمام بهذا الموضوع إلا في بداية القرن الماضي على يد الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا مع سلطات الحماية الفرنسية وذلك من أجل فهم الثقافة المحلية وعقلية سكانها(الجيلالي، 2014، ص12).

ويمكن تعريف الحكاية الشعبية أنها: "مخزون مهم للصور والرموز والنماذج الأصلية والخطاطات التي تكون المتخيل الشعبي المغربي"، إنها مكونات ثقافية تطبع المتخيل وتستكشف طبيعته، وهي الحلم الجماعي الذي يهرب فيه الجميع من ذواتهم ويحققون خلاله رغباتهم الدفينة، تختلط فيه السخرية والمرح بعنف الرغبات الطفولية، وتطلق فيه حكمة السنين منظمة أحوال البشر من جديد(فخر الدين، 2014، ص12).

وتتميز الحكاية الشعبية في "تطوان" بطابعها الاجتماعي أو التربوي بشكل كبير، وتعرف باسم "الخرافة"، ومنها ما تستهدف الكبير وأخرى تستهدف الأطفال والصغار، حيث غالباً ما تلقيها الأمهات أو الجدات قبل النوم أو في فترة القيلولة، كما كانت تلقى الحكايات في بعض الميادين والفضاءات العمومية من طرف الحكواتي، هذا الشخص الذي يتميز بذلك الحس الجمالي والتواصلي وما عنده من ذوق يصل إلى أن يكون رفيعاً على الرغم من بساطة العمل أو سذاجته، حيث يمتع الحضور بنخبة من الحكايات الجميلة مواضيع تختلف باختلاف المستهدف هل هو طفل أم شخص كبير السن.

فمن مواضيع الأطفال هناك عالم الحيوانات الشخصيات الخيالية الحشرات والنبات وغيرها، وكلها تستعمل من أجل هدف واحد وهو تغليب قيمة الخير على الشر، وتخويف الأطفال من آثار بعض التصرفات السيئة، ومن بين أهم الحكايات الشعبية أو"الخرايف" المتداولة نجد "عمتي الغولة" و"عيشا قنديشا".

أما شخصيات الحكايات الموجهة نحو الكبار فغالباً ما تكون شخصيات واقعية في قالب خيالي لا يمت للواقع

بصلة، كشخصية بعض مراتب المخزن كالقاضي والقايد والشيخ والسلطان وغيرها من الشخصيات، أو شخصية بعض المهن كالتاجر والصياد، والفقيه وغيرها، ومواضيعها تعالج غالباً قيمة الخير والعدل والكفاح من أجل الوطن أو من أجل لقمة العيش أو العدل بين الرجل والمرأة، وبالنسبة للحلقة المتعلقة بالحكواتي كانت الغرسة الكبيرة مسرحاً خاصاً بها.

صورة 3: حلقة الحكواتي في مدينة تطوان في عهد الحماية الإسبانية

المصدر: http://www.findglocal.com/MA/T%C3%A9touan/

تؤكد الصورة اهتمام الساكنة التطوانية بالحكاية الشعبية التي كان الحكواتي يقدمها في الساحات العمومية الذي اندثرت بصفة نهائية من المدينة

أما اليوم فالحكاية اندثرت بشكل شبه كلي حيث لم يعد الحكواتي موجوداً، وإذا استثنينا مبادرة واحدة تقوم بها مجموعة من الشباب في مكتبات الحي ولكن تبقى غير كافية من أجل إحياء هذا التراث الثقافي اللا مادي الشعبي، الذي أصبح عرضة للنسيان.

فالحكاية الشعبية معرضة اليوم للاندثار أكثر من أي وقت مضى خصوصاً مع انتشار وسائل الترفيه في المجتمع التطواني، ونخص بالذكر الهاتف الذكي والتلفاز واللوحات الذكية، حيث عوضت الحكايات الليلية الشعبية بهذه الوسائل الترفيهية (عبد الهادي، 2013، ص251).

والحكاية الشعبية من المؤشرات الرمزية لثقافة المجموعة البشرية وقيمها الأخلاقية والتربوية وحتى الاجتماعية، وفي طيات أسطوريتها هناك الواقع المعيش، وتعمل على ترسيخ قيم أنتجتها جماعة بشرية التي تعمل على ترسيخها وضمان استمراريتها حفاظاً على الهوية والثوابت، كما أنها تحقق تواصلاً فكرياً لا يستهان به بين السلف والخلف، وبالتالي تضمن استمرارية نفس النسق ونفس البيانات وتساهم بذلك في تمتين الهوية والانتماء، وفي توطيد لحمة المجموعات، وتدعيم ثقة الفرد بنفسه وحضارته وتراثه(محمد، 2019، ص183)، كما أنها تمثل الوجه الحضاري للمجموعة البشرية في مقابل الجماعات الأخرى.

الخاتمة

من خلال كل ما سبق في فقرات المقالة يتضح أن التراث الثقافي الشفهي بمدينة "تطوان" يتسم بالتنوع والغنى، سواء من حيث الأصناف الشفهية أو من حيث التأثر بالثقافات المتعاقبة على مدينة "تطوان"، ويعتبر التأثير الأندلسي أو الثقافة

الأندلسية واضحاً وجلياً في هذا الموروث الثقافي، حيث ما زال حياً لحدود الفترة المعاصرة سواء في اللهجة المحلية من خلال الأمثال والحكم أو الفنون الغنائية ذات الأصول الأندلسية، فالتراث الشفهي التطواني يعتبر وسيلة لتعزيز الهوية المحلية الأندلسية وإحياء الذاكرة التطوانية التي تساهم في تلك الخصوصية المجالية التي تتميز بها مدينة "تطوان"، حيث يمكن لهذا التراث الثقافي اللا مادي أن يؤدي دوراً رياديا في التنمية المحلية بمدينة "تطوان".

المراجع

1. أخليفة مصطفى، (2000)، أضواء على الفنون الجبلية بشمال المغرب، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ.
2. أمحراف عبد الهادي، (2013)، بعض مظاهر التراث اللا مادي بالريف، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية سلسلة دراسات وأبحاث رقم 04، التراث في جبال الريف: واقع وآفاق.
3. أميلي حسن والتزرني عبد الكريم، (2019) ، التراث الشفوي بواحات درعة الوسطى سبل المحافظة وآفاق التثمين التراث اللا مادي بالجنوب المغربي، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة بمدينة تيزنيت أيام: 30/29/28 مايو 2015، تنسيق محمد آيت حمزة والوافي نوحي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
4. بنونة عبد السلام، (2016) ، تحفة الإخوان في الصنائع التقليدية بتطوان، تخريج وتقديم حسناء محمد داود، منشورات مكتبة سلمى الثقافية.
5. داود حسناء، (2019) ، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داوود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي.
6. داود محمد، (1999)، الأمثال العامية في "تطوان" والبلاد العربية، الجزء الأول: مقدمات والأمثال المجردة، إصدارات المجموعة الحضرية بتطوان، مطبعة الهداية.
7. داود محمد، (2010)، تاريخ "تطوان، المجلد الثاني، منشورات جمعية تطاون أسمير.
8. داود محمد، (2016)، التكملة ذيل لكتاب تاريخ "تطوان" في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية، مراجعة وتحقيق وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي.
9. الرامي خالد، (2005)، "تطوان" خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران، مطبعة الخليج العربي.
10. الرهوني أبو العباس أحمد، (2011)، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق الحاج جعفر بن الحاج السلمي، جمعية تطاون أسمير ج2، مطبعة الخليج العربي.
11. السعود عبد العزيز، (1996) ، "تطوان" خلال القرن التاسع عشر، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي.
12. السعود عبد العزيز، (2009) ، معطيات ديمغرافية وإثنية عن "تطوان" في القرنين 18 و19، في المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، تنسيق امحمد بن عبود، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، سلسلة أعمال الندوات 15 و16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي، "تطوان"، مطبعة الخليج العربي، "تطوان" المغرب.

13. سليماني رشيد، (2019)، تجليات الهوية والخصوصية في الشعر النسائي الأمازيغي السوسي، التراث اللا مادي بالجنوب المغربي، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة بمدينة تيزنيت أيام: 30/29/28 مايو 2015، تنسيق محمد آيت حمزة والوافي نوحي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،
14. الكدية الجيلالي، (2014) ، أنطولوجيا الحكاية الشعبية المغربية، مطبعة أنفوبرانت، مدينة فاس.
15. سيد عبد العال عبد المنعم، (1968)، لهجة شمال المغرب "تطوان" وما حولها، وزارة الثقافة المصرية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
16. فخر الدين محمد، (2014) ، الحكاية الشعبية المغربية بنيات السرد والمتخيل، صدر عن دار نشر المعرفة بالرباط.
17. القباج عبد الإله، (2005)، الصناعة التقليدية نضال وثقافة واقتصاد اجتماعي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
18. المسعودي ليلى، (1987) ، أمثال وأقوال مغربية، مطبعة إيديال الدارالبيضاء.